السمـاء ليوضح عبودية الإنسـان لربه ، وكيف يكون عبداً مُـخْلصاً لله تعالى ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾

فـمَنْ كان يريد الأُسْـوة الطيبـة فى عـبودية الرسـول لربه ، هذه العبـودية التى جعلتْه يسـرى به إلى بيت المقدس ، ثم يصـعد به إلى السمـاء ، ومَنْ كان يريد أن يكونَ مثل نوح فى عـبوديته لربه فـأكرم ذريتـه من أجله ، فعليـه أنْ يسيـرَ على دَرْبهم ، وأنْ يقتـدىَ بهم فى عبوديتـهم لله تعالى ، وليحذر أن يكون مثل اليهـود الذين أفسدوا فى الأرض مرتين .

والذى يرسم لنا الطريق ويُوضِّـح لنا الحق من الباطل هو القـرآن الكريم : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء]

قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء]

هل عند نزول هذه الآية كان القرآن كله قد نزل ، ليقول : إن هذا القرآن ؟

نقـول : لم يكن القـرآن كله قـد نـزل ، ولكن كل آية فى القـرآن تُسمَّى قرآناً ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ﴾ [القيامة]

فليس المراد القرآن كله ، بل الآية من القرآن قرآن . ثم لما اكتمل نزول القرآن ، واكتملتْ كل المسائل التى تضـمن لنا استقامة الحياة ، قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا .. ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة]

فإن استشرف مُستشرف أنْ يستزيد على كتاب الله ، أو يأتى بجديد فليعلم أن منهج الله مُنزّه عن النقص ، وفى غنىً عن زيادتك ، وما عليك إلا أن تبحث فى كتاب الله ، وسوف تجد فيه ما تصبو إليه من الخير .

قوله : ﴿ يَهْدِى .. ⁽٩⁾ ﴾ [الإسراء]

الهداية هى الطريق الموصِّل للغاية من أقرب وَجْه ، وبأقل تكلفة . وهو الطريق المستقيم الذى لا التواءَ فيه ، وقلنا : إن الحق سبحانه يهدى الجميع ويرسم لهم الطريق ، فمن اهتدى زاده هُدى ، كما قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ⁽١٧⁾ ﴾ [محمد]

ومعنى : ﴿ أَقْوَمُ .. ⁽٩⁾ ﴾ [الإسراء]

أى : أكثر استقامة وسلاماً . هذه الصيغة تُسمَّى أفعل التفضيل ، إذن : فعندنا (أقوم) وعندنا أقل منه منزلة (قَيِّم) كأن نقول : عالم وأعلم .

فقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ .. ⁽٩⁾ ﴾ [الإسراء]

يدل على وجود (القيِّم) فى نُظم الناس وقوانينهم الوضعية ، فالحق سبحانه لا يحرم البشر من أن يكون لهم قوانين وشرائع حينما تعضُّهم المظالم ويشقُّون بها ، فيُقنِّنون تقنينات تمنع هذا الظلم .

ولا مانع من ذلك إذا لم ينزل لهم منهج من السماء ، فما وضعوه وإنْ كان قَيِّماً فما وضعه الله أقوم ، وأنت لا تضع القيم إلا بعد أنْ

تُعضّ بشىء مُعوج غير قيّم ، وإلا فماذا يلفتُك للقيم ؟

أما منهج السماء فإنه يضع الوقاية ، ويمنع المرض من أساسه ، فهناك فَرْق بين الوقاية من المرض وبين العلاج للمرض ، فأصحاب القوانين الوضعية يُعدّلون نُظمهم لعلاج الأمراض التى يَشْقَون بها .

أما الإسلام فيضع لنا الوقاية ، فإن حَدثتْ غفلة من المسلمين ، وأصابتهم بعض الداءات نتيجة انصرافهم عن منهج ربهم نقول لهم : عودوا إلى المنهج : ﴿إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ..(٩)﴾ [الإسراء]

ولتوضيح أن منهج الحق سبحانه أقوم نروى ما حدث معنا فى مدينة « سان فرانسيسكو » فقد سألنا أحدُ المستشرقين عن قول الحق تبارك وتعالى : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢)﴾ [التوبة]

وفى آية أخرى يقول : ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾ . [التوبة]

فكيف يقول القرآن : ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ..(٣٣)﴾ [التوبة]

فى حين أن الإسلام محصور ، وتظهر عليه الديانات الأخرى ؟

فقلتُ له : لو تأملتَ الآية لوجدتَ فيها الردّ على سؤالك ، فالحق سبحانه يقول : ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢)﴾ [التوبة]

ويقول : ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾ [التوبة]

إذن : فالكافرون والمشركون موجودون ، فالظهور هنا ليس ظهور

اتّباع ، ولم يقُل القرآن : إن الناس جميعاً سيؤمنون .

ومعنى الظهور هنا ظهور حُجَّة وظهور حاجة ، ظهور نظم وقوانين ، ستضطرهم أحداث الحياة ومشاكلها إلى التخلّى عن قوانينهم والأخذ بقوانين الإسلام ؛ لأنهم وجدوا فيها ضَالّتهم .

فنظام الطلاق فى الإسلام الذى كثيراً ما هاجموه وانتقدوه ، ورأوا فيه ما لا يليق بالعلاقة الزوجية ، ولكن بمرور الزمن تكشفت لهم حقائق مؤلمة ، وشقى الكثيرون منهم لعدم وجود هذا الحل فى قوانينهم ، وهكذا ألجأتهم مشاكل الحياة الزوجية لأنْ يُقنِّنوا للطلاق .

ومعلوم أن تقنينهم للطلاق ليس حُباً فى الإسلام أو اقتناعاً به ، بل لأن لديهم مشاكل لا حلَّ لها إلا بالطلاق ، وهذا هو الظهور المراد فى الآيتين الكريمتين ، وهو ظهور بشهادتكم أنتم ؛ لأنكم ستلجأون فى حل قضاياكم لقوانين الإسلام ، أو قريباً منها .

ومن هذه القضايا أيضاً قضية تحريم الربا فى الإسلام ، فعارضوه وأنكروا هذا التحريم ، إلى أن جاء « كنز » وهو زعيم اقتصادى عندهم ، يقول لهم : انتبهوا ، لأن المال لا يؤدى وظيفته كاملة فى الحياة إلا إذا انخفضتْ الفائدة إلى صفر .

سبحان الله ، ما أعجب لَجَج هؤلاء فى خصومتهم مع الإسلام ، وهل تحريم الربا يعنى أكثر من أن تنخفض الفائدة إلى صفر ؟ إنهم يعودون لمنهج الله تعالى رَغْماً عنهم ، ومع ذلك لا يعترفون به .

ولا يخفى ما فى التعامل الربوى من سلبيات ، وهل رأينا دولة اقترضت من أخرى ، واستطاعت على مَرّ الزمن أنْ تُسدد حتى أقساط

الفائدة ؟ ثم نراهم يغالطوننا يقولون : ألمانيا واليابان أخذت قروضاً بعد الحرب العالمية الثانية ، ومع ذلك تقدمت ونهضت .

نقول لهم : كفاكم خداعاً ، فألمانيا واليابان لم تأخذ قروضاً ، وإنما أخذت معونة لا فائدة عليها ، تسمى معونة (مارشال) .

وأيضاً من هذه القضايا التى ألجأتهم إليها مشاكل الحياة قضية ميراث المرأة ، فلما عضّتهم قنّنُوا لها .

فظهور دين الله هنا يعنى ظهورَ نُظم وقوانين ستضطرهم ظروف الحياة إلى الأخذ بها ، وليس المقصود به ظهور اتّباع .

إذن : فمنهج الله أقوم ، وقانون الحق سبحانه أعظم من قوانين البشر وأهْدى ، وفى القرآن الكريم ما يُوضّح أن حكم الله وقانونه أقوم حتى من حكم رسوله ﷺ .

وهذا فى قصة مولاه « زيد بن حارثة »(١) ، وزيد لم يكن عبداً ، إلى أن خطفه بعض تجار الرقيق وباعوه ، وانتهى به المطاف إلى السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ التى وهبتْه بدورها لخدمة رسول الله ﷺ .

فكان زيد فى خدمة رسول الله ﷺ إلى أن علم أهله بوجوده فى مكة فأتوا ليأخذوه ، فما كان من رسول الله ﷺ ، إلا أن خَيَّره بين البقاء معه وبين الذهاب إلى أهله ، فاختار زيد البقاء فى خدمة رسول

(١) هو : زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبى : صحابى ، اختطف فى الجاهلية صغيراً ، واشترته خديجة بنت خويلد فوهبته إلى النبى ﷺ حين تزوجها ، فتبناه وأعتقه وزوّجه بنت عمته ، جعل له الإمارة فى غزوة مؤتة فاستشهد فيها ، توفى ٨ هـ .

الله وآثره على أهله . فقال ﷺ : « فما كنت لأختار على مَنِ اختارنى شيئاً »[1] .

وفى هذه القصة دليل على أن الرقّ كان مباحاً فى هذا العصر ، وكان الرقّ حضانةَ حنانٍ ورحمة ، يعيش فيها العبد كما يعيش سيده ، يأكل من طعامه ، ويشرب من شرابه ، يكسوه إذا اكتسى ، ولا يُكلّفه ما لا يطيق ، وإنْ كلّفه أعانه ، فكانت يده بيده[2] .

وهكذا كانت العلاقة بين محمد ﷺ وبين زيد ؛ لذلك آثره على أهله ، وأحب البقاء فى خدمته ، فرأى رسول الله أن يُكافىء زيداً على إخلاصه له وتفضيله له على أهله ، فقال : « لا تقولوا زيد بن حارثة ، قولوا زيد بن محمد »[3] .

وكان التبنى شائعاً فى ذلك الوقت . فلما أراد الحق سبحانه أنْ يُحرّم التبنى ، وأنْ يُحرِّم نسبة الولد إلى غير أبيه بدأ برسول

(١) أورده ابن حجر العسقلانى فى كتاب « الإصابة فى تمييز الصحابة » (ترجمة رقم ٢٨٨٤) فى ترجمة « زيد بن حارثة الكلبى » .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٦٠٥٠) ومسلم فى صحيحه (١٦٦١) من حديث أبى ذر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له : « هم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فأطعموهم مما تأكلون ، وألبسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » .

(٣) ذلك أن رسول الله ﷺ قال : « اشهدوا أن زيداً ابني يرثني وأرثه » أورده ابن حجر فى الإصابة ترجمة رقم (٢٨٨٤) فدعى زيد بن محمد حتى نزل قوله تعالى : ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ..۝٥﴾ [الأحزاب] . ثم إن رسول الله ﷺ زوّج زيداً ابنة عمته زينب بنت جحش ، ثم نزل قوله تعالى : ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ۝٣٧﴾ [الأحزاب] .

الله ﷺ ، فقال : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ .. (٥) ﴾ [الأحزاب]

والشاهد هنا : ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الأحزاب]

فكأن الحكم الذى أنهى التبنى ، وأعاد زيداً إلى زيد بن حارثة هو الأقسط والأعدل ، إذن : حكم الرسول ﷺ لم يكن جَوْراً ، بل كان قسْطاً وعدلاً ، لكنه قسط بشرى يَفْضُله ما كان من عند الحق سبحانه وتعالى .

وهكذا عاد زيد إلى نسبه الأصلى ، وأصبح الناس يقولون « زيد ابن حارثة » ، فحزن لذلك زيد ، لأنه حُرِم من شرف الانتساب لرسول الله ﷺ فعوَّضه الله تعالى عن ذلك وساماً لم يَنَلْه صحابى غيره ، هذا الوسام هو أن ذُكر اسمه فى القرآن الكريم ، وجعل الناس يتلونه ، ويتعبدون به فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب]

إذن : عمل الرسول قسط ، وعمل الله أقسط .

قوله تعالى : ﴿ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ .. (٩) ﴾ [الإسراء]

لأن المتتبع للمنهج القرآنى يجده يُقدِّم لنا الأقوم والأعدل والأوسط فى كل شىء . فى العقائد ، وفى الأحكام ، وفى القصص .

ففى العقائد مثلاً ، جاء الإسلام ليجابه مجتمعاً متناقضاً بين مَنْ ينكر وجود إله فى الكون ، وبين مَنْ يقول بتعدُّد الآلهة ، فجاء الإسلام وَسَطاً بين الطرفين ، جاء بالأقوم فى هذه المسألة ، جاء ليقول بإله واحد لا شريك له .

فإذا ما تحدَّث عن صفات هذا الإله سبحانه اختار أيضاً ما هو أقوم وأوسط ، فللحق سبحانه صفات تشبه صفات البشر ، فلَه يَدٌ وسمع وبصر ، لكن ليست يده كيدنا ، وليس سمعه كسمعنا ، وليس بصره كبصرنا : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى]

وبهذا المنهج الحكيم خرجنا مما وقع فيه المشبِّهة الذين شبَّهوا صفات الله بصفات البشر ، وخرجنا مما وقع فيه المعطِّلة الذين أنكروا أن يكون لله تعالى هذه الصفات وأوّلوها على غير حقيقتها .

وكذلك في الخلق الاجتماعي العام ، يلفتنا المنهج القرآني في قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يوسف]

يلفتنا إلى ما في الكون من عجائب نغفل عنها ، ونُعرض عن تدبُّرها والانتفاع بها ، ولو نظرنا إلى هذه الآيات بعين المتأمل لوجدنا فيها منافع شتى منها : أنها تُذكِّرنا بعظمة الخالق سبحانه ، ثم هي بعد ذلك ستفتح لنا الباب الذي يُثري حياتنا ، ويُوفِّر لنا ترف الحياة ومتعتها .

فالحق سبحانه أعطانا مُقوِّمات الحياة ، وضمن لنا برحمته ضروريات البقاء ، فمَنْ أراد الكماليات فعليه أنْ يُعمِل عقله فيما أعطاه الله ليصل إلى ما يريد .

والأمثلة كثيرة على مشاهدات متأملة في ظواهر الكون ، اهتدى بها أصحابها إلى اكتشافات واختراعات خدمت البشرية ، وسهَّلَتْ عليها كثيراً من المعاناة .

فالذي اخترع العجلة في نقل الأثقال بنى فكرتها على ثِقَل وجده

يتحرك بسهولة إذا وُضع تحته شيء قابل للدوران ، فتوصل إلى استخدام العجلات التي مكَّنته من نقل أضعاف ما كان يحمله .

والذي أدخل العالم عصر البخار استنبط فكرة البخار ، وأنه يمكن أن يكون قوة مُحرِّكة عندما شاهد القِدْر وهو يغلي ، ولاحظ أن غطاءه يرتفع إلى أعلى ، فاهتدى إلى استخدام البخار في تسيير القطارات والعربات .

والعالم الذي اكتشف دواء « البنسلين » اهتدى إليه عندما شاهد طبقة خضراء نسميها « الريم » تتكون في أماكن استخدام الماء ، وكان يشتكي عينه ، فعندما وصلت هذه المادة إلى عينه ربما مصادفةً ، لاحظ أن عينه قد برئتْ ، فبحث في هذه المسألة حتى توصّل إلى هذا الدواء .

إلى غير ذلك من الآيات والعجائب في كون الله ، التي يغفل عنها الخَلْق ، ويمرُّون عليها وهم معرضون .

أما هؤلاء العلماء الذين أثروا حياة البشرية بنظرتهم الثاقبة ، فقد استخدموا عقولهم في المادة التي خلقها الله ، ولم يأتوا بشيء من عند أنفسهم ؛ لأن الحق سبحانه حينما استخلف الإنسان في الأرض أعدَّ له كُلَّ متطلبات حياته ، وضمن له في الكون جنوداً إنْ أعمل عقله وطاقته يستطيع أن يستفيد منها ، وبعد ذلك طلب منه أن يعمر الأرض : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. ﴿٦١﴾﴾ [هود]

والاستعمار أنْ تجعلها عامرة ، وهذا الإعمار يحتاج إلى مجهود ، وإلى مواهب متعددة تتكاتف ، فلا تستقيم الأمور إنْ كان هذا يبني

وهذا يهدم ، إذن : لابد أن تُنظَّم حركة الحياة تنظيماً يجعل المواهب في الكون تتساند ولا تتعاند ، وتتعاضد ولا تتعارض .

ولا يضمن لنا هذا التنظيم إلا منهج من السماء ينزل بالتي هي أقوم ، وأحكم ، وأعدل ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ .. (١٧) ﴾ [الشورى]

وإنْ كان الحق سبحانه وتعالى قد دعانا إلى النظر في ظواهر الكون ، والتدبُّر في آيات الله في كونه ، والبحث فيها لنصل إلى أسرار ما غُيِّب عنا ، فإنه سبحانه نهانا أن نفعل هذا مع بعضنا البعض ، فقد حرَّم علينا التجسُّس وتتبُّع العورات ، والبحث في أسرار الآخرين وغَيْبهم .

وفي هذا الأدب الإلهي رحمة بالخلق جميعاً ؛ لأن الله تعالى يريد أن يُثرى حياة الناس في الكون ، وهَبْ أن إنساناً له حسنات كثيرة ، وعنده مواهب متعددة ، ولكن له سيئة واحدة لا يستطيع التخلّي عنها ، فلو تتبعتَ هذه السيئة الواحدة فربما أزهدتْك في كل حسناته ، وحرمتْك الانتفاع به ، والاستفادة من مواهبه ، أما لو تغاضيت عن هذه السيئة فيه لأمكنك الانتفاع به .

وهَبْ أن صانعاً بارعاً في صنعته وقد احتجْتَه ليؤديَ لك عملاً ، فإذا عرفت عنه ارتكاب معصية ما ، أو اشتهر عنه سيئة ما لأزهدك هذا في صَنْعته ومهارته ، ولرغبت عنه إلى غيره ، وإنْ كان أقلّ منه مهارة .

وهذا قانون عام للحق سبحانه وتعالى ، فالذي نهاك عن تتبُّع

غيب الناس ، والبحث عن أسرارهم نهاهم أيضاً عن تتبُّع غَيْبك والبحث عن أسرارك ؛ ولذلك ما أنعم الله على عبيده نعمةً أعظمَ من حِفْظ الغيب عنده هو ؛ لأنه ربٌّ ، أما البشر فليس فيهم ربوبية ، أمر البشر قائم على العبودية ، فإذا انكشف لأحدهم غَيْبُ أخيه أو عيبٌ من عيوبه أذاعه وفضحه به .

إذن : فالحق تبارك وتعالى يدعونا إلى أن نكون طُلَعة[1] فى استنباط أسرار الكون والبحث عن غيبه ، وفى الوقت نفسه ينهانا أن نكون طُلَعة فى تتبّع أسرار الناس والبحث عن غيبهم ؛ لأنك إنْ تتبعتَ غيب الناس والتمستَ عيوبهم حرمْتَ نفسك من مصادر يمكن أنْ تنتفع بها .

فالحق سبحانه يريد فى الكون حركة متبادلة ، وهذه الحركة المتبادلة لا تنشأ إلا بوجود نوع من التنافس الشريف البنَّاء ، التنافس الذى يُثْرى الحياة ، ولا يثير شراسة الاحتكاك ، كما قال تعالى : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المطففين]

كما يتنافس طالب العلم مع زميله المجدّ ليكون مثْله أو أفضل منه ، وكأن الحق سبحانه يعطينا حافزاً للعمل والرُّقى ، فالتنافس المقصود ليس تنافس الغلّ والحقد والكراهية ، بل تنافس مَنْ يحب للناس ما يحب لنفسه ، تنافس مَنْ لا يشمت لفشل الآخرين .

وقد يجد الإنسان هذا الحافز للمنافسة حتى فى عدوه ، ونحن

---

(١) الطلعة : كثرة التطلع إلى الشىء . ومنها نفس طلعة : كثيرة الميل إلى هواها تشتهيه حتى تهلك صاحبها . [لسان العرب ـ مادة : طلع] .

نرى الكثير منا يغضب وتُثار حفيظته إنْ كان له عدو ، ويراه مصدر شرٍّ وأذى ، ويتوقع منه المكروه باستمرار.

وهو مع ذلك لو استغل حكمة الله فى إيجاد هذا العدو لانتفع به انتفاعاً لا يجده فى الصديق ، لأن صديقك قد يُنافقك أو يُداهنك أو يخدعك .

أما عدوك فهو لك بالمرصاد ، يتتبع سقطاتك ، ويبحث عن عيوبك ، وينتظر منك كَبْوة ليذيعها ويُسمّع بك ، فيحملك هذا من عدوك على الاستقامة والبعد عما يشين .

ومن ناحية أخرى تخاف أن يسبقك إلى الخير ، فتجتهد أنت فى الخير حتى لا يسبقك إليه .

وما أجمل ما قاله الشاعر فى هذا المعنى :

عِدَاىَ لَهُمْ فَضْلٌ علىَّ ومنّةٌ ... فَلاَ أبعَدَ الرحْمَنُ عَنِّى الأعَاديا

هُمُو بحثُوا عَنْ زَلّتى فَاجْتنبْتُها ... وهُمْ نَافَسُونى فاكْتَسبْتُ المعَاليا

وهكذا نجد لكل شىء فى منهج الله فائدة ، حتى فى الأعداء ، ونجد فى هذا التنافس المثمر الذى يُثرى حركة الحياة دليلاً على أن منهج السماء هو الأقوم والأنسب لتنظيم حركة الحياة .

أيضاً لكى يعيش المجتمع آمناً سالماً لا بُدّ له من قانون يحفظ توازنه ، قانون يحمى الضعيف من بطش القوى ، فجاء منهج الله تعالى لِيُقنّن لكل جريمة عقوبتها ، ويضمن لصاحب الحق حقّه ، وبعد ذلك ترك الباب مفتوحاً للعفو والتسامح بين الناس .

ثم حـذَّر القوى أنْ تُطغـيه قـوته ، وتدعـوه إلى ظلم الضعـيف ، وذكّـره أن قـوته ليـست ذاتيـة فيـه ، بل هى عَـرَضٌ سـوف يزول ، وسوف تتـبدل قـوته فى يوم ما إلى ضَـعْف يحتـاج معه إلـى العون والمساعدة والحماية .

وكأن الحق تبارك وتعالى يقول لنا : أنا أحمى الضعيف من قوتك الآن ، لأحمى ضعفك من قوة غيرك غداً .

أليس فى هذا كله ما هو أقوم ؟

ونقف على جانب آخر من جوانب هذه القوامة لمنهج الله فى مجال الإنفاق ، وتصـرُّف المرء فى مـاله ، والمتأمل فى هذا الـمنهج الأقوم يجده يختار لنا طريقاً وسطاً قاصداً لا تبذيرَ فيه ولا تقتير[1].

ولا شك أن الإنسـان بطبعـه يُحب أن يُثـرى حيـاته ، وأن يرتقى بها ، ويتـمتع بتـرفهـا ، ولا يُتاح له ذلك إنْ كـان مُبذِّراً لا يُبـقى من دخله على شىء ، بل لا بُدَّ له من الاعـتدال فى الإنفاق حـتى يجد فى جعبـته ما يمكنه أن يُثرى حيـاته ويرتقى بها ويُوفِّر لأسرته كـماليات الحياة ، فضلاً عن ضرورياتها .

جاء هذا المنهج الأقوم فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان]

وفى قوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء]

---

(١) قتر على عياله : ضيق عليهم فى النفقة . والإقتار : التضييق على الإنسان فى الرزق . [لسان العرب ـ مادة : قتر] .

فللإنسان فى حياته طموحات تتتابع ولا تنتهى ، خاصة فى عصر كثُرت فيه المغريات ، فإنْ وصل إلى هدف تطلع لما هو أكبر منه ، فعليه إذن ألاَّ يُبدِّد كل طاقته ، وينفق جميع دَخْله .

وكما نهى الإسلام عن التبذير نهى أيضاً عن البُخْل والإمساك ؛ لأن البخل مذموم ، والبخيل مكروه من أهله وأولاده ، كما أن البُخْل سبب من أسباب الركود والبطالة والكساد التى تصيب المجتمع ، فالممسك لا يتعامل مع المجتمع فى حركة البيع والشراء ، فيسهم ببُخْله فى تفاقم هذه المشاكل ، ويكون عنصراً خاملاً يَشْقى به مجتمعه .

إذنْ : فالتبذير والإمساك كلاهما طرف مذموم ، والخير فى أوسط الأمور ، وهذا هو الأقوم الذى ارتضاه لنا المنهج الإلهى .

وكذلك فى مجال المأكل والمشرب ، يرسم لنا الطريق المعتدل الذى يحفظ للمرء سلامته وصحته ، ويحميه من أمراض الطعام والتُّخْمة ، قال تعالى : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١)﴾ [الأعراف]

فقد علَّمنا الإسلام أن الإنسان إذا أكل وشرب على قَدْر طاقة الوقود الذى يحتاجه جسمه لا يشتكى ما يشتكيه أصحاب الإسراف فى المأكل والمشرب .

والمتأمل فى حال هؤلاء الذين يأكلون كلّ مَا لَذَّ وطاب ، ولا يَحْرمون أنفسهم مما تشتهيه ، حتى وإن كان ضاراً ، نرى هؤلاء عند كِبَرهم وتقدُّم السِّنِّ بهم يُحْرمون بأمر الطبيب من تناول هذه

الملذّات ، فترى فى بيوت الأعيان الخادم يأكل أطيب الطعام ويتمتع بخير سيده ، فى حين يأكل سيده أنواعاً محددة لا يتجاوزها ، ونقول له :

لأنك أكلتها وأسرفتَ فيهـا فى بداية الأمر ، فلا بُدَّ أنْ تُحرَم منها الآن .

وصـدق رسول الله ﷺ حـين قال : « كُلُوا واشـربوا وتصدقـوا ، والبسوا فى غير إسراف ولا مخيلة »[1]

وأيضاً من أسـباب السلامـة التى رسمها لـنا المنهج القرآنى ، ألاَّ يأكل الإنسـان إلا على جوع ، فـالطعـام على الطعام يرهق المعـدة ، ويجرُّ على صـاحبه العطب والأمراض ، ونلاحظ أن الإنسـان يجد لذة الطعام وحـلاوته إذا أكل بعد جـوع ، فمع الجوع يسـتطيب كل شىء ولو كان الخبز الجاف .

وهكذا نجد المنهج الإلهى يرسم لنا الطريق الأقوم الذى يضمن لنا سلامـة الحياة واسـتقامـتها ، فلو تدبرْتَ هذا المـنهج لوجدته فى أىِّ جانب من جوانب الحياة هو الأقوم والأنسب .

فى العقائد ، فى العبادات ، فى الأخلاق الاجتماعية العامة ، فى العادات والمعاملات ، إنه منهج ينتظم الحياة كلهـا ، كما قال الحق سبحانه : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام]

هذا المنهج الإلهى هو أقْوم المناهج وأصلحـها ؛ لأنه منهج الخالق سبـحانه الذى يعلم مَنْ خلق ، ويعلم مَا يصلحـهم ، كما قلنا سـابقاً :

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/١٨١ ، ١٨٢) ، وابن ماجه فى سننه (٣٦٠٥) والنسائى فى سننه (٥/٧٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما .

إن الصانع من البشر يعلم صَنْعته ، ويضع لها من تعليمات التشغيل والصيانة ما يضمن لها سلامة الأداء وأمن الاستعمال .

فإذا ما استعملْتَ الآلة حَسْب قانون صانعها أدَّتْ مهمتها بدقة ، وسلمتْ من الأعطال ، فالذى خلق الإنسان أعلم بقانون صيانته ، فيقول له : افعل كذا ولا تفعل كذا : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك]

فآفة الناس فى الدنيا أنهم وهم صَنْعة الحق سبحانه يتركون قانونه ، ويأخذون قانون صيانتهم من أمثالهم ، وهى قوانين وضعية قاصرة لا تسمو بحال من الأحوال إلى قانون الحق سبحانه ، بل لا وَجْهَ للمقارنة بينهما . إذن : لا تستقيم الحياة إلا بمنهج الله عز وجل.

ثم يقول تعالى : ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء]

فالمنفذ لهذا المنهج الإلهى يتمتع باستقامة الحياة وسلامتها ، وينعم بالأمن الإيمانى ، وهذه نعمة فى الدنيا ، وإنْ كانت وحدها لكانت كافية ، لكن الحق سبحانه وتعالى يُبشِّرنا بما هو أعظم منها ، وبما ينتظرنا من نعيم الآخرة وجزائها ، فجمع لنا ربنا تبارك وتعالى نَعيمَيْ الدنيا والآخرة .

نعيم الدنيا لأنك سِرْتَ فيها على منهج معتدل ونظام دقيق ، يضمن لك فيها الاستقامة والسلامة والتعايش الآمن مع الخَلْق .

ومن ذلك قول الحق سبحانه : ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة]

وقوله تعالى فى آية أخرى : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾ [طه]

ويقول تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾ [النحل]

وفى الجانب المقابل يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا[1] وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) ﴾ [طه]

فكما أن الحق تبارك وتعالى جمع لعباده الصالحين السائرين على منهجه خيرى الدنيا والآخرة ، ففى المقابل جمع لأعدائه المعرضين عن منهجه عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، لا ظُلْماً منه ، فهو سبحانه مُنزَّه عن الظلم والجَوْر ، بل عَدْلاً وقِسطاً بما نَسُوا آيات الله وانصرفوا عنها .

ومعنى : ﴿ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ .. (٩) ﴾ [الإسراء]

وعمل الصالحات يكون بأن تزيد الصالح صلاحاً ، أو على الأقل تُبقِى الصالح على صلاحه ، ولا تتدخل فيه بما يُفسده .

وقوله : ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) ﴾ [الإسراء]

نلاحظ هنا أن الحق سبحانه وصف الأجر بأنه كبير ، ولم يَأْتِ

---

(١) الضنك : الضيق من كل شيء . والمعيشة الضنك : الضيقة غير المتسعة . [القاموس القويم ١/٣٩٥] .

بصيغة أفعل التفضيل منها (أكبر) ، فنقول : لأن كبير هنا أبلغ من أكبر ، فكبير مقابلها صغير ، فوَصْف الأجر بأنه كبير يدل على أن غيره أصغر منه ، وفي هذا دلالة على عِظَم الأجر من الله تعالى .

أما لو قال : أكبر فغيره كبير ، إذن : فاختيار القرآن أبلغ وأحكم .

كما قلنا سابقاً : إن من أسماء الحق تبارك وتعالى (الكبير) ، وليس من أسمائه أكبر ، إنما هي وَصْف له سبحانه . ذلك لأن (الكبير) كل ما عداه صغير ، أما (أكبر) فيقابلها كبير .

ومن هنا كان نداء الصلاة (الله أكبر) معناه أن الصلاة وفَرْض الله علينا أكبر من أيّ عمل دنيويّ ، وهذا يعني أن من أعمال الدنيا ما هو كبير ، كبير من حيث هو مُعين على الآخرة .

فعبادة الله تحتاج إلى طعام وشراب وإلى مَلْبس ، والمتأمل في هذه القضية يجد أن حركة الحياة كلها تخدم عمل الآخرة ، ومن هنا كان عمل الدنيا كبيراً ، لكن فَرْض الله أكبر من كل كبير .

ولأهمية العمل الدنيوي في حياة المسلم يقول تعالى عن صلاة الجمعة : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠ ﴾ [الجمعة]

والمتأمل في هذه الآيات يجد الحق تبارك وتعالى أمرنا قبل الجمعة أن نترك البيع ، واختار البيع دون غيره من الأعمال ؛ لأنه الصفقة السريعة الربح ، وهي أيضاً الصورة النهائية لمعظم الأعمال ،

كمـا أن البائع يحب دائماً الـبيع ، ويحرص عليـه ، بخلاف المشـترى الذى ربما يشترى وهو كاره ، فتـجده غير حريص على الشراء ؛ لأنه إذا لم يشْتَرِ اليوم سيشترى غداً .

إذن : فالحق سبحانه حينما يأمـرنا بترك البيع ، فتَـرْك غيره من الأعمال أوْلَى .

فـإذا ما قُـضيَت الصَـلاة أمـرنا بالعودة إلـى العمل والسـعى فى مناكب الأرض ، فأخـرجنا للقائه سبـحانه فى بيته من عـمل ، وأمرنا بعد الصلاة بالعمل .

إذن : فالعمل وحركة الحيـاة (كبير) ، ولكن نداء ربك (أكبر) من حركـة الحياة ؛ لأن نداء ربك هو الذى سـيمنحك القـوة والطاقة ، ويعطيك الشحنة الإيمانية ، فتُقبِل على عملك بهِمّة وإخلاص .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

وهذه الآية امتداد للآية السابقة ، ومـعطوفة عليها ؛ لأن الله تعالى ذكر فعلاً واحداً : ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء]

ثم عطف عليه : ﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الإسراء]

إذن : فـالآية داخلة فى البـشـارة الـسـابقـة ، ولكن كـيف ذلك ، والبشارة السابقة تُبشّر المؤمنين بأن لهم أجراً كبيراً ، والبشارة إخبار بخيْر يأتى فى المستقبل ، فكيف تكون البشارة بالعذاب ؟ .

قالوا : نعم ، هذه بشارة على سبيل التهكُّم والاستهزاء بهم ، كما

قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) ﴾ [التوبة]

وكما قال الحق سبحانه متهكماً : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ[1] الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان]

وكما تقول للولد الذى أهمل فأخفق فى الامتحان : مبروك عليك الفشل ، أو تقول : بشِّر فلاناً بالرسوب .

وقد تكون البشارة للمؤمن بالجنة ، وللكافر بالعذاب ، كلاهما بشارة للمؤمن ، فبشارة المؤمن بالجنة تسرُّه وتُسعده ، وتجعله يستشرف ما ينتظره من نعيم الله فى الآخرة .

وبشارة الكافر بالعذاب تسرُّ المؤمن ؛ لأنه لم يقع فى مصيدة الكفر ، وتزجر مَنْ لم يقع فيه وتُخيفه ، وهذا رحمة به وإحسان إليه .

وهذا المعنى واضح فى قول الحق سبحانه فى سورة الرحمن :

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) ﴾ [الرحمن]

فهذه كلها نِعَم من نِعَم الله تعالى علينا ، فناسب أن تُذيَّل بقوله

---

(١) رجل عزيز : منيع لا يُغلب ولا يُقهر . ومعنى قوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان] . أى : ذُق بما كنت تُعَدّ فى أهل العز والكرم . [لسان العرب ـ مادة : عزز] .

تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) ﴾ [الرحمن]

أما قوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[1] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن]

فأيُّ نعمة فى أنْ يُرسل الله عليهما شواظ من نار ونحاس فلا ينتصران ؟

نعم ، المتأمل فى هذه الآية يجد فيها نعمة من أعظم نِعَم الله ، ألا وهى زَجْر العاصى عن المعصية ، ومسرّة للطائع .

ثم يقول الحق سبحانه عن طبيعة الإنسان البشرية :

﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١) ﴾

(يَدْعُ) الدعاء : طلَب ما تعجز عنه من قادر عليه .

وأهل النحو يقولون . إن الفعل : ماض ومضارع وأمر . فالأمر : طَلَبٌ من الأعلى إلى الأدنى ، فكلّ طلب منَ الله لخلْقه فهو أمر ، أو من الأعلى من البشر للأدنى . أما إنْ كان الطلب من مُسَاوٍ لك فهو التماس أو رجاء . فإنْ كان الطلب من الأدنى للأعلى ، كطلبِ العبد من ربه فهو دعاء .

لذلك نجد التدقيق فى الإعراب يحفظ لله تعالى مكانته ويُعظّمه ، فنقول للطالب : أعرب : رب اغفر لى ، فيقول : اغفر ، فعْل دالّ على الدعاء ، لأنه لا يجوز فى حَقِّ المولَى تبارك وتعالى أن نَقول : فعل أمر ، فالله لا يأمره أحد .

---

(١) الشواظ : القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١/٣٦١] .

فأوَّل مـا يُفهم من الدعاء أنه دَلَّ على صـفة العجـز والضعف فى العبـد ، وأنه قد اندكتْ فيـه ثورة الغرور ، فعلِـم أنه لا يقدر على هذا إلا الله فتوجَّه إليه بالدعاء .

(بِالشَّـرِّ) بالمكروه ، والإنسـان لا يدعـو على نفسـه ، أو على ولده ، أو على مـاله بالشـر إلا فى حـالة الحنَق والغـضـب وضـيق الأخلاق ، الذى يُخرِج الإنسان عن طبيعته ، ويُفقِـده التمييز ، فيتسرَّع فى الدعاء بالشر ، ويتمنى أن يُنفِّذ الله له مَا دعا به .

ومن رحمة الله تعالى بعبـاده ألاَّ يستجيب لهم هذا الدعاء الذى إنْ دلَّ فإنما يدلّ على حُمْق وغباء فى العبد .

وكثيراً ما نسمع أماً تدعو على ولدها بما لو استجاب الله له لكانت قاصمة الظهر لهـا ، أو نسمع أباً يدعو على ولده أو على ماله ، إذن : فمن رحمـة الله بنا أنْ يفوت لنا هذا الحمق ، ولا يُنفِّذ لنـا ما تعجّلناه من دُعاء بالشر .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۝١١ ﴾ [يونس]

أى : لو استجاب الله لهم فى دعائهم بالشر لكانت نهايتهم .

وإن كنت تُسَرّ وتسـعد بأن ربك سبـحانه وتعالى فـوّتَ لك دعوة الشر فلم يَسْتجب لها ، وأن لعدم استجابته سبحانه حكمةً بالغةً .

فاعلم أن لله حكمة أيضـاً حينما لا يستجيب لك فى دعـوة الخير ، فلا تقُلْ : دعـوتُ فلم يستجِبْ لى ، واعلم أن لله حـكمة فى أنْ يمنعك

خيراً تُريده ، ولعله لو أعطاك هذا الخير لكان وبالاً عليك .

إذن : عليك أن تقيسَ الأمرين بمقياس واحد ، وترضى بأمر الله في دعائك بالخير ، كما رضيت بأمره حين صرف عنك دعاء الشر ، ولم يستجب لك فيه . فكما أن له سبحانه حكمة في الأولى ، فلَه حكمة في الثانية .

وقد دعا الكفار على عهد رسول الله ﷺ على أنفسهم ، فقالوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ.. (٣٢) ﴾ [الأنفال]

وقالوا : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا[1].. (٩٢) ﴾ [الإسراء]

ولو استجاب الله لهم هذا الدعاء لَقضى عليهم ، وقطع دابرهم ، لكن لله تعالى حكمة في تفويت هذا الدعاء لهؤلاء الحمْقى ، وها هم الكفار باقون حتى اليوم ، وإلى أن تقوم الساعة .

وكان المنتظر منهم أن يقولوا : اللهم إنْ كان هذا هو الحقّ من عندك فاهْدنا إليه ، لكن المسألة عندهم ليست مسألة كفر وإيمان ، بل مسألة كراهية لمحمد ﷺ ، ولما جاء به ، بدليل أنهم قَبلوا الموت في سبيل الكفر وعدم الإيمان برسالة محمد ﷺ .

ومن طبيعة الإنسان العجلة والتسرُّع ، كما قال تعالى : ﴿ خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) ﴾ [الأنبياء]

---

(١) الكسفة : القطعة . وكِسْف السحاب وكسفه : قِطعه . [لسان العرب ـ مادة : كسف] .

فكثيراً ما يدعو الإنسان بالخير لنفسه أو بما يراه خيراً ، فلا يجد وراءه إلا الشر والتعب والشقاء ، وفى المقابل قد يُنزل الله بك ما تظنه شراً ، ويسوق الله لك الخير من خلاله .

إذن : أنت لا تعلم وَجْه الخير على حقيقته ، فدع الأمر لربك عز وجل ، واجعل حظك من دعائك لا أنْ تُجابَ إلى ما دعوت ، ولكن أن تظهر ضراعة عبوديتك لعزَّة ربك سبحانه وتعالى .

ومعنى : ﴿ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ .. (١١) ﴾ [الإسراء]

أى : أن الإنسان يدعو بالشر فى إلحاح ، وكأنه يدعو بخير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ(١) ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا (١٢) ﴾

الحق سبحانه وتعالى جعل الزمن ليلاً ونهاراً ظرفاً للأحداث ، وجعل لكل منهما مهمة لا تتأتَّى مع الآخر ، فهما متقابلان لا متضادان ، فليس الليل ضد النهار أو النهار ضد الليل ؛ لأن لكل منهما مهمة ، والتقابل يجعلهما متكاملين .

ولذلك أراد الله تعالى أن يُنظِّر بالليل والنهار فى جنس الإنسان

---

(١) محونا : طمسنا . وقال على بن أبى طالب وقتادة : يريد بالمحو اللطخة السوداء التى فى القمر ، ليكون ضوء القمر أقل من ضوء الشمس فيتميز به الليل من النهار . [تفسير القرطبى ٩/٣٩٥٦] .

من الذكورة والأنوثة ، فهما أيضاً متكاملان لا متضادان ، حتى لا تقوم عداوة بين ذكورة وأنوثة ، كما نرى البعض من الجنسين يتعصَّب لجنسه تعصُّباً أعمى خالياً من فَهْم طبيعة العلاقة بين الذكر والأنثى .

فالليل والنهار كجنس واحد لهما مهمة ، أما من حيث النوع فلكل منهما مهمة خاصة به ، وإياك أن تخلط بين هذه وهذه .

تأمل قول الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) ﴾ [الليل]

فلا تجعل الليل ضداً للنهار ، ولا النهار ضداً لليل ، وكذلك لا تجعل الذكورة ضداً للأنوثة ، ولا الأنوثة ضداً للذكورة .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ .. (١٢) ﴾ [الإسراء]

جعلنا : بمعنى خلقنا ، والليل والنهار هما المعروفان لنا بالمعايشة والمشاهدة ، ومعرفتنا هذه أوضح من أنْ نعرِّفهما ، فنقول مثلاً : الليل هو مَغيب الشمس عن نصف الكرة الأرضية ، والنهار هو شروق الشمس على نصف الكرة الأرضية .

إذن : قد يكون الشيء أوضح من تعريفه .

والحق سبحانه خلق لنا الليل والنهار ، وجعل لكل منهما حكمة ومهمة ، وحينما يتحدَّث عنهما ، يقول تعالى : ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) ﴾ [الضحى] فبدأ بالضحى .

ويقول : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) ﴾ [الليل] فبدأ بالليل .

ومرة يتحدث عن اللازم لهما ، فيقول : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ (١) ﴾ [الأنعام]

لأن الحكمة من الليل تكمن فى ظُلْمته ، والحكمة من النهار تكمُن فى نوره ، فالظُّلْمة سكَنٌ واستقرار وراحة . وفى الليل تهدأ الأعصاب من الأشعة والضوء ، ويأخذ البدن راحته ؛ لذلك قال ﷺ : « أطفئوا المصابيح إذا رقدتم »(١) .

فى حين نرى الكثيرين يظنون أن الأضواء المبهرة - التى نراها الآن - مظهر حضارى ، وهم غافلون عن الحكمة من الليل ، وهى ظلمته .

والنور للحركة والعمل والسَّعْى ، فمَن ارتاح فى الليل يُصبح نشيطاً للعمل ، ولا يعمل الإنسان إلا إذا أخذ طاقة جديدة ، وارتاحت أعضاؤه ، ساعتها تستطيع أن تطلب منه أن يعمل .

لذلك قال الحق سبحانه : ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ .. (٧٣)﴾ [القصص]

لماذا ؟ ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ .. (٧٣)﴾ [القصص] أى : فى الليل .

﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣)﴾ [القصص] أى : فى النهار .

إذن : لليل مهمة ، وللنهار مهمة ، وإياك أنْ تخلط هذه بهذه ، وإذا ما وُجد عمل لا يُؤدَّى إلا بالليل كالحراسة مثلاً ، نجد الحق

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٢٨٠) من حديث جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ قال : « إذا استجنح الليل - أو كان جنح الليل - فكفُّوا صبيانكم ، فإن الشياطين تنتشر حينئذ ، فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلوهم ، وأغلق بابك ، واذكر اسم الله ، وأطفىء مصباحك ، واذكر اسم الله ، وأوك سقاءك واذكر اسم الله ، وخمِّر إناءك واذكر اسم الله ، ولو تعرض عليه شيئاً » .

سبحانه يفتح لنا باباً لنخرج من هذه القاعدة العامة .

فيقول تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. (٢٣)﴾ [الروم]

فجعل النهار أيضاً محلاً للنوم ، فأعطانا فُسْحة ورُخْصة ، ولكن في أضيق نطاق ، فمَنْ لا يقومون بأعمالهم إلا في الليل ، وهي نسبة ضئيلة لا تخرق القاعدة العامة التي ارتضاها الحق سبحانه لتنظيم حركة حياتنا .

فإذا خرج الإنسان عن هذه القاعدة ، وتمرَّد على هذا النظام الإلهي ، فإن الحق سبحانه يَردعه بما يكبح جماحه ، ويحميه من إسرافه على نفسه ، وهذا من لُطْفه تعالى ورحمته بخَلْقه .

هذا الردْع إما رَدْع ذاتيّ اختياري ، وإما رَدْع قَهْريّ ، الردع الذاتي يحدث للإنسان حينما يسعى في حركة الحياة ويعمل ، فيحتاج إلى طاقة ، هذه الطاقة تحتاج إلى دم متدفق يجري في أعضائه ، فإنْ زادتْ الحركة عن طاقة الإنسان يلهث وتتلاحق أنفاسه ، وتبدو عليه أمارات التعب والإرهاق ، لأن الدم المتوارد إلى رئته لا يكفي هذه الحركة .

وهذا نلاحظه مثلاً في صعود السلّم ، حيث حركة الصعود مناقضة لجاذبية الأرض لك ، فتحتاج إلى قوة أكثر ، وإلى دم أكثر وتنفس فوق التنفس العادي .

فكأن الحق سبحانه وتعالى جعل التعب والميل إلى الراحة رادعاً ذاتياً في الإنسان ، إذا ما تجاوز حَدّ الطاقة التي جعلها الله فيه .

أما الردْع القهرى فهو النوم ، يلقيه الله على الإنسان إذا ما كابر وغالط نفسه ، وظن أنه قادر على مزيد من العمل دون راحة ، فهنا يأتى دور الرادع القَسْرى ، فينام رغماً عنه ولا يستطيع المقاومة ، وكأن الطبيعة التى خلقها الله فيه تقول له : ارحم نفسك ، فإنك لم تَعُدْ صالحاً للعمل .

فالحق تبارك وتعالى لا يُسلِم الإنسان لاختياره ، بل يُلقى عليه النوم وفقدان الوعى والحركة ليحميه من حماقته وإسرافه على نفسه .

لذلك نرى الواحد منّا إذا ما تعرّض لمناسبة اضطرته لعدم النوم لمدة يومين مثلاً ، لا بُدَّ له بعد أن ينتهى من مهمته هذه أنْ ينَام مثل هذه المدة التى سهرها ؛ ليأخذ الجسم حقَّه من الراحة التى حُرِم منها .

وقوله تعالى : ﴿آيَتَيْنِ .. ⦗١٢⦘﴾ [الإسراء]

قلنا : إن الآية هى الشىء العجيب الذى يدعو إلى التأمل ، ويُظهِر قدرة الخالق وعظمته سبحانه ، والآية تُطلَق على ثلاثة أشياء :

- تُطلَق على الآيات الكونية التى خلقها الله فى كونه وأبدعها ، وهذه الآيات الكونية يلتقى بها المؤمن والكافر ، ومنها كما قال تعالى :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ..⦗٣٧⦘﴾ [فصلت]

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ⦗٣٢⦘﴾ [الشورى]

وهذه الآيات تلفتنا إلى قدرة الخالق سبحانه وتعالى .

- وتُطلق الآيات على المعجزات التى تصاحب الرسل ، وتكون دليلاً على صدْقهم ، فكل رسول يُبعَث ليحمل رسالة الخالق لهداية الخَلْق ، لا بُدَّ أن يأتى بدليل على صِدْقه وأمارة على أنه رسول .

وهذه هى المعجزة ، وتكون مما نبغ فيه قومه ومهروا ؛ لتكون أوضح فى إعجازهم وادْعَى إلى تصديقهم .

قال تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ..(٥٩)﴾ [الإسراء]

- وتُطلق الآيات على آيات القرآن الكريم الحاملة للأحكام .

إذن : هذه أنواع ثلاثة ، فى كل منها عجائب تدعوك للتأمل ، ففى **الأولى** : هندسة الكون ونظامه العجيب البديع الدقيق ، وفى **الثانية** : آيات الإعجاز ، حيث أتى بشىء نبغ فيه القوم ، ومع ذلك لم يستطيعوا الإتيان بمثله ، وفى **الثالثة** : آيات القرآن وحاملة الأحكام ؛ لأنها أقوم نظام لحركة الحياة .

فقول الحق سبحانه : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ .. (١٢)﴾ [الإسراء]

أى : كونيتين ، ولا مانع أنْ تفسر الآياتُ الكونية آيات القرآن .

وقوله : ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ .. (١٢)﴾ [الإسراء]

أى : بعد أنْ كان الضوء غابت الشمس فَحَلَّ الظلام ، أو مَحوْناهَا : أى جعلناها هكذا ، كما قلنا : سبحان مَنْ بيَّض اللبن . أى خلقه هكذا ، فيكون المراد : خلق الليل هكذا مظلماً .

﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً .. (١٢)﴾ [الإسراء]

أى : خلقنا النهار مضيئاً ، ومعنى مبصرة أو مضيئة أى : نرى بها الأشياء ؛ لأن الأشياء لا تُرى فى الظلام ، فإذا حَلَّ الضياء والنور رأيناها ، وعلى هذا كان ينبغى أن يقول : وجعلنا آية النهار مُبْصَراً فيها ، وليست هى مبصرة .

وهذه كما في قوله تعالى فى قصة موسى وفرعون : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً .. (١٣) ﴾ [النمل]

فنسب البصر إلى الآيات ، كما نسب البصر هنا إلى النهار .

وهذه مسألة حيَّرتْ الباحثين فى فلسفة الكون وظواهره ، فكانوا يظنون أنك ترى الأشياء إذا انتقل الشعاع من عينك إلى المرئى فتراه . إلى أن جاء العالم الإسلامى « ابن الهيثم » الذى نَوَّر الله بصيرته ، وهداه إلى سرِّ رؤية الأشياء ، فأوضح لهم ما وقعوا فيه من الخطأ ، فلو أن الشعاع ينتقل من العين إلى المرئى لأمكنك أن ترى الأشياء فى الظُّلمة إذا كنتَ فى الضوء .

إذن : الشعاع لا يأتى من العين ، بل من الشىء المرئى ؛ ولذلك نرى الأشياء إنْ كانت فى الضوء ، ولا نراها إنْ كانت فى الظلام .

وعليه يكون الشىء المرئىّ هو الذى يبصرك من حيث هو الذى يتضح لك ، ويساعدك على رؤيته ، ولذلك نقول : هذا شىء يُلفت النظر أى : يرسل إليك مَا يجعلك تلتفت إليه .

إذن : التعبير القرآنى : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً .. (١٢) ﴾ [الإسراء] على مستوى عالٍ من الدقة والإعجاز ، وصدق الله تعالى حين قال : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

وقوله تعالى : ﴿ لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ .. (١٢) ﴾ [الإسراء]

وهذه هى العلة الأولى لآية الليل والنهار .

أى : أن السعى وطلب الرزق لا يكون إلا فى النهار ؛ لذلك أتى طلب فضل الله ورزقه بعد آية النهار ، ومعلوم أن الإنسان لا تكون له حركة نشاطية وإقبال على السَّعى والعمل إلا إذا كان مرتاحاً ولا تتوفر له الراحة إلا بنوم الليل .

وبهذا نجد فى الآية الكريمة نفس الترتيب الوارد فى قوله تعالى :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣) ﴾ [القصص]

فالترتيب فى الآية يقتضى أن نقول : ﴿ لِتَسْكُنُوا فِيهِ .. (٧٣) ﴾ [القصص] أى : فى الليل ، ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣) ﴾ [القصص] أى : فى النهار ، وعمل النهار لا يتم إلا براحة الليل ، فهما ـ إذن ـ متكاملان .

والحق سبحانه وتعالى جعل النهار مَحلاً للحركة وابتغاء فضل الله ؛ لأن الحركة أمرٌ مادىّ وتفاعل مادىّ بين الإنسان ومادة الكون من حوله ، كالفلاح وتفاعله مع أرضه ، والعامل وتفاعله مع آلته .

هذا التفاعل المادى لا يتم إلا فى ضوء ؛ لأن الظلمة تغطى الأشياء وتُعميها ، وهذا يتناسب مع الليل حيث ينام الناس ، أما فى السعى والحركة فلا بُدَّ من ضوء أتبين به الفاعل والمنفعل له ، ففى الظلمة قد تصطدم بما هو أقوى منك فيحطمك ، أو بما هو أضعف منك فتحطمه .

إذن : فأول خطوات ابتغاء فضل الله أن يتبيّن الإنسان المادة التى يتفاعل معها . لذلك ، فالحق سبحانه جعل الظلمة سابقة للضياء ، فقال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ .. ①﴾ [الأنعام]

لأن النور محلٌّ للحركة ، ولا يمكن للإنسان أن يعمل إلا بعد راحة ، والراحة لا تكون إلا فى ظُلْمة الليل .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ .. ⑫﴾ [الإسراء]

وهذه هى العِلَّة الأخرى لليل والنهار ، حيث بمرورهما يتمّ حساب السنين .

وكلمة « عَدَدَ » تقتضى شيئاً له وحدات ، ونريد أن نعرف كمية هذه الوحدات ؛ لأن الشىء إنْ لم تكُنْ له كميات متكررة فهو واحد .

وقوله : ﴿ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ .. ⑫﴾ [الإسراء]

لأنها من لوازم حركتنا فى الحياة ، فعن طريق حساب الأيام نستطيع تحديد وقت الزراعات المختلفة ، أو وقت سقوط المطر ، أو هبوب الرياح . وفى العبادات نحدد بها أيام الحج ، وشهر الصوم ، ووقت الصلاة ، ويوم الجمعة ، هذه وغيرها من لوازم حياتنا لا نعرفها إلا بمرور الليل والنهار .

ولو تأملتَ عظمة الخالق سبحانه لوجدتَ القمر فى الليل ، والشمس فى النهار ، ولكل منهما مهمة فى حساب الأيام والشهور والسنين ، فالشمس لا تعرف بها إلا اليوم الذى أنت فيه ، حيث يبدأ اليوم بشروقها وينتهى بغروبها ، أما بالقمر فتستطيع حساب الأيام والشهور ؛ لأن الخالق سبحانه جعل فيه علامة ذاتية يتم الحساب على

أساسـها ، فـهو فى أول الشـهر هلال ، ثم يكبر فيصير إلى تربيع أول ، ثم إلى تربيع ثان ، ثم إلى بدر ، ثم يأخذ فى التناقص إلى أن يصل إلى المحاق آخر الشهر .

إذن : نستطيع أن نحدد اليوم بالشمس والشهور بالقمر ، ومن هنا تثبت مواقيت العبادة بالليل دون النهار ، فتثبت رؤية رمضان ليلاً أولاً ، ثم يثبت نهاراً ، فنقول : الليلة أول رمضان ، لذلك قال تعالى :

﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ[1] لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ .. (٥)﴾ [يونس]

فقوله : ﴿قَدَّرَهُ .. (٥)﴾ [يونس] أى : القمر ؛ لأن به تتبين أوائل الشهور ، وهو أدقّ نظام حسابى يُعتمد عليه حتى الآن عند علماء الفلك وعلماء البحار وغيرهم .

و ﴿مَنَازِلَ .. (٥)﴾ [يونس] هى البروج الاثنى عشر للقمر التى أقسم الله بها فى قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣)﴾ [البروج]

ولأن حياة الخَلْق لا تقوم إلا بحساب الزمن ، فقد جعل الخالق سبحانه فى كَوْنه ضوابط تضبط لنا الزمن ، وهذه الضوابط لا تصلح لضبط الوقت إلا إذا كانت هى فى نفسها منضبطة ، فمثلاً أنت لا تستطيع أن تضبط مواعيدك على ساعتك إذا كانت غير منضبطة (تُقدّم أو تُؤخّر) .

لذلك يقول الخالق المبدع سبحانه عن ضوابط الوقت فى كَوْنه :

---

(١) أى : قدرناه له فى سيره أن ينزل فى أماكن محددة ، تجعله مرة هلالاً ، ومرة بدراً ، ومرة كالعرجون القديم فى إشرافه على المحاق آخر الشهر . [القاموس القويم ٢/ ٢٦٠] .

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ ﴾ [الرحمن]

أي : بحساب دقيق لا يختلّ ، وطالما أن الخالق سبحانه خلقها بحساب فاجعلوها ضوابط لحساباتكم .

وقوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ۝١٢ ﴾ [الإسراء]

معنى التفصيل أن تجعل بَيْناً بين شيئين ، وتقول : فصلْتُ شيئاً عن شيء ، فالحق سبحانه فصَّل لنا كل ما يحتاج إلى تفصيل ، حتى لا يلتبس علينا الأمر في كل نواحي الحياة .

ومثال ذلك في الوضوء مثلاً يقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ.. ۝٦ ﴾ [المائدة]

فأطلق غَسْل الوجه ؛ لأنه لا يختلف عليه أحد ، وحدَّد الأيدي إلى المرافق ، لأن الأيدي يُختلف في تحديدها ، فاليد قد تكون إلى الرُّسْغ ، أو إلى المرفق ، أو إلى الكتف ، لذلك حددها الله تعالى ، لأنه سبحانه يريدها على شكل مخصوص .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ.. ۝٦ ﴾ [المائدة]

فالرأس يناسبها المسْح لا الغَسْل ، والرِّجْلان كاليد لابُدَّ أنْ تُحدَّد . فإذا لم يوجد الماء أو تعذَّر استعماله شرع لنا سبحانه التيمم ، فقال تعالى : ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً[1] طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ .. ۝٤٣ ﴾ [النساء]

---

(١) الصعيد : هو كل تراب طيب . وقال الشافعي : لا يقع اسم صعيد إلا على تراب ذي غبار . وقال أبو إسحاق : الصعيد وجه الأرض وعلى الإنسان أن يضرب بيديه وجه الأرض ، ولا يبالي أكان في الموضع تراب أو لم يكن ، لأن الصعيد ليس هو التراب ، إنما هو وجه الأرض ، تراباً كان أو غيره . [لسان العرب ـ مادة : صعد] .